ساخاروف، دوبتشيك، فاليسا... والعرب

الحياة - ١٥/ ١١/ ٨٨

غسان سلامة *

حقوق الانسان «على الموضة» الأيام، ورياح «البيريسترويكا» فتح لها بالتفتح، ولو الجزئي، في الشرق الاوروبي. ساخاروف غادر الاتحاد السوفياتي نحو الولايات المتحدة، وطالب الغرب بدعم البيروباتشوف، لأن هذا هو ضمانة الفتح. اما فاليسا، النقابي البولندي، المنقل من احواض بناء السفن في غدانسك الى لائحة حاملي جائزة نوبل للسلام، فقد وصل الى باريس وعلى كتفيه صورة «العذراء السوداء» تبرز ايمانه الكاثوليكي، وتحديه للالحاد، الذي هو دين الدولة في الشرق. ورأى فاليسا ان سكان الغرب عندهم الكثير من الخيرات، لكن قناعاتهم، لا سيما الدينية منها، ضئيلة، وهو اخذ عليهم ذلك. أما دوبتشيك، فما استطاع اللحاق بساخاروف وفاليسا للاحتفال بالعيد الاربعين لشرعة حقوق الانسان، لأن من كانوا في السلطة في براغ ليس متحمساً لحقوق هذا الانسان بالذات، الذي يطيل الوقوف براغ في الذاكرة التشيكوسلوفاكية أكثر مما يجب.

ساخاروف عقلاني بارد، يخاف من سكرة المجتمعات ومن الدكتاتورية الحزبية ويعارض سباق التسلح عن معرفة، وهو الخبير بالفيزياء النووية. فاليسا عامل نشط، شعبي، تبرق في عينه لمعات ذكاء فطري. دوبتشيك حذر، حول حذره نوعاً من السياسة وهو يمضي ايامه في فيلا متواضعة في بيسلافا ينقل على ورقة صغيرة اسم لسيارات المخابرات التي تراقب منزله ويبتسم عندما تمر احدى هذه السيارات، فينتبه لها واذا برقمها على لوحته.

عندما يقرأ الانسان العربي هذا الكلام قد يتساءل عن فائدته. بل انك تسمع في مقاهي بيروت والقاهرة وحتى الديوانيات الخليجية، وتقرأ في مقالات عربية طموحة ان مسألة حقوق الانسان هي في النهاية مؤامرة غربية لإضعاف الاتحاد السوفياتي، صديق العرب. وتفاجأ عندما تقرأ لبعض كتاب العرب مقولات تعتبر انتفاضة دول الاستقلالية، وسياسة «البيروسترويكا» السوفياتية، وربيع براغ وبراغ من قبلها، وكأنها مؤامرة يهودية تذكرك ببروتوكولات حكماء صهيون. بل هناك من يؤكد ان غورباتشيف يهودي على رغم كاثوليكيته، وساخاروف يهودي على رغم الحاده. وكأنما تعرض الحقيقة عليهم ستجدهم يقولون بأن مستشار الاول وزوجة دوبتشيك يهودي فاذا بنا امام البروتوكولات لتشاؤمنا!

ومع ان هؤلاء العرب بالذات قد تعودوا على القهر والقمع بحيث اصبحت ممارسة القهر او تحمل القمع عندهم نوعاً من الطبيعة الثانية. لذلك هم يساوون عن خطأ بين قوة الدول ومستوى احترام الحقوق البدائية فيها، وهم يعتبرون احترام البشر نوعاً من الضعف امامهم، وان مدى قوة النظام لا تقاس الا بمقدرته على البطش والتنكيل.

هذا التعود على القهر، لدى القاهر والمقهور على السواء، هو الذي يجعل بعض العرب يهزأون من محاولات الدفاع عن حقوق الفرد الاساسية، او يجدون الاعذار ويختلقون المؤامرات الامبريالية والصهيونية لكي يتمكنوا من ان يفسروا لأنفسهم الإنتشار الواسع لهذه الافكار في الشطر الشرقي من اوروبا لذا فان معظم الحكومات العربية التي اخذت عن موسكو ايديولوجيا الحزب الواحد، وتقييد الحريات، لا تريد ان تصدق ان موسكو قد تعود عن هذه السياسات، لأنها ان صدقت فستضطر الى اللحاق بالركب الجديد، او ستجد نفسها على ما هي: سلطة ظالمة تقوم على الاستبداد الشرقي القديم.

ان تخاف الحكومات العربية من «البيريسترويكا» امر طبيعي في النهاية، ولكن الا ياخذ المثقفون العرب مسألة الدفاع عن حقوق الانسان ماخذ الجد، فهذا امر غير طبيعي، لأنه يعني انهم تحولوا، افراداً وجماعات، الى شعراء بلاط شعارهم «لكل مقام مقال». هؤلاء لن يدافعوا عن احد ولا يتوقعون ان يدافع احد يوماً عنهم. فهم دخلوا ابواب الشهرة والارتزاق من خلال «الشطارة»، وعلى الشطارة سيعتمدون في ايامهم الصعبة، وعند تغير الدول التي ترعاهم.

لذا، والعالم يحتفل بالعيد الاربعين لحقوق الانسان، سنرسل تحية الى ساخاروف ودوبتشيك وفاليسا، وتحية اخرى حارة ايضاً الى نيلسون مانديلا والى شعوب الارض المضطهدة والمقهورة، وتلك التي يعبث بحقوقها دكتاتور متغطرس، وقائد تافه يعتقد انه ملهم. والأمل كبير في ان تتمكن المنظمة العربية لحقوق الانسان، التي دخلت اليوم عامها السادس، هي الأخرى من اثبات ان الانسان العربي دخل مرحلة الدفاع المستميت عن حقوقه، وانه سينتج في القريب من الزمن رموزاً براقة لنضاله كمثل مانديلا وفاليسا، ودوبتشيك وساخاروف.

---

* استاذ العلوم السياسية في جامعة باريس الاولى.